الفصل الرابع:
الروح وميلاد الحضارة

- الروح وميلاد الحضارة
- الهجرة... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة
- حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة
- أزمة الذات المسلمة وضياع الإحساس بالسنن الكونية
- الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ
- الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا
- دع الغيب الذي فيك يتكلم
- رحلة الصعود الملائكية

obeikandl.com

obeikandl.com

الروح وميلاد الحضارة[٦١٦]

دائما يُثبت التاريخ أن الحضارة لا تولد إلا بالروح، ويُثبت -أيضا- أن الحضارة تزدهر بالعقل، فالروح أولا والعقل ثانيا. قد يحدث العكس، فتُولد الحضارة بروح هامدة وعقل متألق.

وهنا يمشي العقل وحده، يمشي مسكينا عاريا من مقومات البصيرة الكونية وما وراء الكونية. إنه عقل لا تدثّره حضارة ولا يتلفّع بأردية الوجدان المضطرم بالحبّ، ولا الضمير الحيّ، ولا الإيمان الحارّ، ولا نبضات القلب الوجل من خشية الله. إنه عقل مسكين يمشي -وحده- عندما يفقد الروح، يمشي بلا قلب فقيه ولا عين بصيرة ولا أذن سامعة.

إن العقل -في غيبة الروح- ليقفز من مرحلة الروح الضرورية للميلاد الكامل الصحيح إلى مرحلة الازدهار. لكن أي ازدهار يا تُرى؟ إنه الازدهار "المادي" المحصور في الإبداع "الشيئي" الذي أحرزته التراكمات الكمية المعرفية عبر رحلة العقل في التاريخ من المركبة البدائية إلى السيارة إلى الطائرة، من بريد الرسائل إلى البريد الألكتروني، من الغذاء البسيط إلى الغذاء المركّب والمعلّب، من بيت الطين إلى عمارة الخمسين طابقا، ومن البساطة الداخلية في البيوت إلى بيوت "السوبرلوكس".

---

[٦١٦] مجلة حراء، العدد:١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩).

obeikandl.com

لقد قدّم العقل ازدهارا ماديا وشيئيا لا ريب فيه، لكنه -مع كل ذلك- لم يستطع أن يقدم "البديل" عن "الروح". وكلما ارتفع منسوب عالم الأشياء، هبط منسوب الروح، وفقد الإنسان كثيرا من أركان سعادته. لقد تقدم عالمه الخارجي، أما عالمه الداخلي فهو يتداعى في كل يوم آيلاً للسقوط دون أن تكون هناك تيارات روحية قادرة على إيقاف الانهيار ومنع السقوط. إن كل الوسائل الخارجية تفقد فاعليتها ما دام داخل الإنسان متناقضا، يتآكل روحا وقلبا، ويعيش تعاسة لا تنفع في علاجها الماديات الخارجية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾(فاطر:٢). لقد أصبح العقل ومنجزاته الشيئية والبعيدة عن الروح وثنا يعبد نفسه ويعبد الأشياء.

إن مفتاح سعادة الداخل لا يقوم إلا على تغيير الداخل بوسائل العلاج الداخلية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). إن العقل لا يستطيع تقديم العون للقلب إذا كان هذا العقل مريضا. لقد تحول هذا العقل من عابد لله إلى معبود يعبد الأشياء -في الوقت نفسه- ويؤله المادة والثروة والترف الذي لا حدود له.

ولقد تضخّم هذا الإنسان الذي يقوده العقل وحده، فظن نفسه صانعا وليس مخلوقا لله. لقد نظر إلى نفسه على أنه وسيلة وغاية، وأن الزمان هو حدوده الزمانية، ولا زمان خارج زمانه، وأن مكانه الدنيوي هو المكان الذي لا مكان غيره. فلا آخرة ولا بعث ولا جنة ولا نار.

في مكة والمدينة عاش الرسول ﷺ يصنع الإنسان الذي تقوده الروح. ذلك الإنسان الذي جلس بين يدي الرسول ﷺ في دار الأرقم، وفي شعاب مكة، وفي المسجد النبوي. لا ليتلقى علما مستقلا بذاته، بل علما ممزوجا

بالروح. لقد جلسوا بين يديه وكأن على رؤوسهم الطير، خجلين من توجيه السؤال إليه، لأنهم يعيشون طعم الحب وحلاوة الإيمان وألق الروح وارتفاعها صعودا إلى الأفق الأعلى، حتى لكأنهم -كما ذكروا للرسول ﷺ- بين يديه كالملائكة الذي لا يعنيهم إلا الرحيق المختوم، والسُلاف النقي، تاركين اللهث الكمي المعرفي العقلي لوقته، آخذين منه ما تحتاج إليه تكاليف دينهم ومقتضيات المنهجية النبوية لحياتهم. إنهم -أبدا- لم ينسوا قيمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١)، ولا قيمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، لكنهم أدركوا أن القراءة لا بد أن تكون باسم الله، والعلم لا بد أن يكون مرتبطا بخشية الله، وآمنوا بأنه لن تتحقق الغاية من الروح والعقل إلا حين تكون "الروح" أولا والعقل ثانيا. ولقد أدركوا أن الخطورة تكمن حين يقف العلم وحده، فلا يحميه سياج الإيمان، يحميه من نفسه ومن كبره ومن جبروته وطغيانه، ومن تدميره حين ينفصل عن الروح وعن "اسم الله" وعن "خشية الله".

وعندما حانت لحظة إعطاء العقل -مع إفرازاته المادية- حقه، وجّه الرسول ﷺ إلى ذلك، في غزوة بدر (٢هـ) وجعل فداء الأسير أن يعلّم بعضَ أبناء المسلمين القراءة والكتابة. وكان ﷺ من قبل قد وجه بعض صحابته إلى معرفة لغات بعض البلاد توطئة لإرسالهم (٦هـ) إلى ملوك العالم يدعونهم للإسلام، مدشنا المرحلة العالمية الكبرى للدعوة والحركة. لكن الروح كانت الوقودَ الأول. لأنها تتجاوز حدود العقل الذي تحكمه قوانين قد تكون كافية في الظروف العادية، لكنها غير كافية لإطلاق الدولة والدعوة عالميا.

والسؤال هنا، أيهما -الروح أو العقل- هو الذي دفع أبا بكر ﷺ

لإنفاق كل ماله؟ إن الشريعة أو العقل لا يُلزمانه بذلك.

أيهما، الروح أو العقل دفع عمر ﷺ لإنفاق نصف ماله، ودفع عثمان ﷺ للإنفاق بسخاء كبير على الدعوة في مراحلها الأساس؟

وأيهما، الروح أو العقل، جعل الأنصار يستقبلون إخوانهم المهاجرين، ليس بما يجودون به، وليس بما توجبه فريضة الزكاة أو الأعراف العامة، وإنما يستقبلونهم بحب وإيثار يفوق حب الشقيق لشقيقه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩).

إن كل النوازع البشرية قد سقطت في هذه اللحظات العلوية، لحظات قيادة الروح، لدرجة أن يقول الأنصاري سعد بن الربيع ﷺ لأخيه المهاجري عبد الرحمن بن عوف ﷺ: "خذ شطر مالي، ولي زوجتان تخَيّرْ واحدة منهما أطلّقها لك ثم تتزوجها".

ولو كان العقل هو القائد الأول هنا لما سمح لهذا السموّ أن تتحقق، لأنه محكوم بموازين المصلحة والمواطنة وتبادل المنافع، قبل موازين الحب والإيمان والزهد والإيثار والعشق للدين الجديد.

لقد أدركت فطرة الأنصار النقية أن المهاجرين مروا بمرحلة تمثل درسا على الأنصار أن يفهموه ويرتفعوا إلى مستواه. فهؤلاء المهاجرون قد ضحّوا بوطنهم على حبهم له، وضحوا بدُورهم وأموالهم، حتى إن صهيبا الرومي ﷺ يضحّي بكل ماله ليتركه المشركون يهاجر بدينه ليلحق بالرسول ﷺ، فاستطاع الأنصار -بالروح- أن يرتفعوا إلى المستوى النفسي والوجداني والإيثاري المطلوب، مؤكدين أن الجماعة الإسلامية في المدينة كيان واحد -أنصارا ومهاجرين- لا تفرقهم عنصريات جنسية

ولا عصبيات وطنية ولا صراعات مادية. ومن ثم جاءت "المؤاخاة" التي أقامها الرسول بينهم تتويجا لعلاقة روحية وقلبية وإيمانية لا يستطيع البشر أن يرتقوا إليها.

وهكذا كان دور الروح الذي انبثق منها -وفي ظلالها- التطور العقلي، فولّد العلم -بالتالي- ابنا شرعيا للإيمان، واتجه إلى الخير الإسلامي الإنساني العام، وتوّجه القرآن بتلخيص الرسالة المحمدية في هذه الوظيفة الخالدة التي أهملتها الحضارات والأديان لاسيما الحضارة المادية المعاصرة. إنها وظيفة جيل الصحابة التي استقوها من وظيفة قدوتهم وإمامهم ﷺ والتي حددها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

ليست الروح التي نتعامل معها في حديثنا هذا هي فقط الروح التي تحدث عنها ابن سينا في قوله، ولا هي -فقط- تلك الروح التي تحدّدت اصطلاحا بأنها "ملكة لطيفة غير مادية يُمدّك الله بها لتحتفظ بحياتك، فهي سرّ وجودك وبقائك، وأيضا يمسكها عنك عندما تنتهي حياتك". قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢). إنها الروح التي قد يتوافر لها بعض ذلك، لكنها -كما يتعامل معها القرآن- شيء أقوى وأعم من ذلك بكثير.

لقد خلق الله آدم عليه السلام من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٩). وأمرنا أن لا نيأس من روح الله ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٧٨). فنحن نعيش -كما تدلنا الآيات- بإشعاعات الروح. فلقد خلقنا الله -ابتداءً- من روحه التي

نفخها في أبينا آدم عليه السلام، ثم نفخها في مريم أم عيسى عليهما السلام، ونفخها في كل إنسان يولد في الأرض. فكلّنا من روح الله. وعندما نوضع في امتحانات صعبة، فإن علينا أن نلجأ إلى رَوح الله طلبا للنجاة. وإذا يئسنا من اللجوء إلى رَوح الله التي منها أوجدنا وخلقنا، وبها استقام كياننا، خرجنا من دائرة الإيمان، لأنه ﴿لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧).

ولكن في أساليب أخرى يطلق الله "الروح" على رسوله الأعظم "جبريل عليه السلام": ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(النحل:١٠٢). كما يطلق الله مصطلح "الروح" على القرآن نفسه، ليتم الله به بناء الإيمان ومعمار اليقين في الأرض، ويمنح به المؤمنين نور البصيرة الهادي إلى الصراط المستقيم. ولم يكن محمد ﷺ قبل هذا القرآن على دراية بأيّ كتاب، ولا بشيء من معاني الإيمان: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

فالروح مصطلح جامع ذو إشعاعات ربانية تضيء جوانب الحياة، بل وتنشئ الحياة، وتحفظ الحياة بعيدا عن اليأس، وتعطي للمؤمن طاقة فعالة وإرادة إيجابية تجعله سريع الاستجابة لأوامر الله، قوىّ الإرادة، يملك نفسه وهواه ويطوعهما لأوامر الله ولإشعاعات الروح، ولا تتملكه نفسه أو يتحكم فيه هواه.

والروح نِعْمَ القائد للعقل حتى لا يعبد نفسه، ونِعْمَ الحامي للعلم حتى لا تودي به سلبياته. وذلك عندما ينقلب العقل وثنا، ويصبح العلم هدما، وينهار المعمار البشري من افتراس العقل للإيمان ومن عبثية استخدامه

العلم وغياب الروح المحددة للفواصل الواضحة بين الحق والباطل. وعندما يمضي الإنسان شبه أعمى في طريقه إلى الانهيار.

لقد أقام الرسول ﷺ دولة الهجرة في المدينة على قاعدة الروح من الإيمان، ومع ذلك أطلق عليها بعض العلماء المسلمين "دولة الفكرة". وقارنوا بينها وبين دولة العقد الاجتماعي التي تخيلها "جان جاك روسو". والفرق كبير بين الدولتين؛ فالدولة الإسلامية عقد رباني وإنساني تمتزج فيه روح الوحي مع قوانين الدولة. وصحيح أن الدولة الإسلامية الأولى تضمنت عقدا اجتماعيا تمثل في "المؤاخاة" بين المسلمين، والصحيفة التي تحكم الوشائج وفاعلية القانون بين المسلمين وغير المسلمين من مواطن المدينة. لكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الدستور الحاكم بهذه الدولة بكل شرائحها "القرآن"، وأن قائدها كان هو رسول الله محمد ﷺ، وأن العقد الذي ظهر فيها لم يتم كما قام عقد "روسو" لإقامة التوازن بين الحكام والمحكومين بعد أن طغى الحكام. فكانت نظرية العقد الاجتماعي مجرد ردّ فعل بشري مجردٍ من كل معاني الروح، وكانت أهدافه سياسية وقانونية ومصلحية بحتة. أما مجتمع المدينة فهو مجتمع التكافل الاجتماعي الذي يسمو على القانون. وكان مجتمع الحب والتراحم والعدل بين الجميع.

وعندما درس بعضهم نظرية "روح القوانين" (نظرية فصل السلطات) لـ"مونتسكيو"، ظنوا أنها إطار كفيل بإيجاد روح إيجابية فاعلة منطلقة من الروح الموروثة التي صنعتها تجربة الأمة ومسيرتها التاريخية. وهنا نلحظ أن "الروح" قد انبثقت من تجارب تاريخية بكل ما يمكن أن تكون قد حملتها من رواسب وتناقضات/مناقضات، وأن هيمنة روح المجتمعات يمكن أن يسيء إلى الوعي الفردي. بينما في دولة الفكرة والعقيدة أو

"الأمة الوسط الشهيدة على الناس" تحكم الثوابت الربانية. فثمة التوازن بين روح الفرد والمجتمع، وثمة الثوابت العليا المتحدة من الروح التي كوّنها الإيمان، إلى جانب التجارب التي يمكن أن تغربَل وتصفّى في ضوء الثوابت والمقاصد الشرعية.

وثمة شاهد قوي يستدل به المؤرخون على فعالية الروح الإسلامية في المدينة حين يقارنون بين هذا المشهد نفسه في موقفين مختلفين حين حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تطبيقه في بداية القرن العشرين.

ففي المدينة المنورة نزل الوحي متدرجا في تحريم الخمر. فلما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(المائدة:٩٠-٩١)، سرعان ما استجاب الصحابة المشحونون بالروح الإيمانية فقالوا "انتهينا يا رب"، وألقوا بكل ما عندهم من الخمور حتى سالت بها طرقات المدينة.

أما تجربة أمريكا في تحريم الخمور في مطلع القرن العشرين حين أنفقت في منعها عدة مليارات من الدولارات وتحركت جيوشها الإعلامية والطبية لكشف أضرار الخمور، بل وغيّرت الدستور فنصّت على تحريم الخمر. ومع ذلك فشلت فشلا ساحقا ووقعت مقاومة شعبية كبيرة، واضطرت أمريكا لإعادة إباحتها وإلغاء تحريمها من الدستور. والفرق بين المشهدين واضح، فهو يتجلى في وجود الروح الإيمانية والإرادة القوية في مشهد المدينة، وغياب كل ذلك في الموقف الأمريكي.

وقد كنت أشعر بنوع من الهروب عندما يكتفي بعضهم بالمقارنة بين

موقف الصحابة المؤمنين كل الإيمان، وموقف الأمريكان العلمانيين أو مذبذبي الإيمان؛ وكنت أرى أنه من الضروري المقارنة بين موقف المسلمين أنفسهم في حقبتين تاريخيتين مختلفتين مع أنهم جميعا كمسلمين يؤمنون بأركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة ويصلون ويحجون ويعتمرون. ومع ذلك فإن مسلمي عصرنا هؤلاء مع إسلامهم الخامد الروح الفاقد الإرادة قد يشربون الدخان والشيشة بعد الفطور في رمضان، وبعد الخروج من الصلاة في الحرم والمسجد النبوي، مع كل ما عرفوه عن تحريم الدخان، وأضراره الطبية والاقتصادية على الأفراد والمجتمعات.

لقد كان الفيلسوف والمهندس الجزائري "مالك بن نبي" رائعا في استفادته من مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) حين أبرز ابن خلدون دور النبوّة في صناعة الإنسان المؤمن الإيجابي. فلا حضارة بدون عقيدة، وبدون إنسان فطري بسيط كعمر بن الخطاب ﷺ، ذلك المؤمن الحق الذي كان ينام تحت شجرة في الطريق وهو أمير المؤمنين. ومن هذا الإنسان يأتي دور الازدهار العمراني الذي تنذر مرحلةُ ازدهاره البالغة حدَّ الترف والدعة في الحياة بالدخول في مرحلة الانهيار.

فعلى هدي ابن خلدون كتب مالك بن نبي عناصر الحضارة الثلاثة المحقِّقة لشروط النهضة، وهي: الإنسان أولا، والزمان ثانيا، والتراب ثالثا، وتأتي العقيدة قبل ذلك ومعه كجامع مازج لهذا المركّب، حتى تصل به إلى بناء الفرد القادر على الإقلاع الحضاري وصناعة الحضارة.

إنها الروح أولا وإنه العقل ثانيا، وبالروح والعقل معا ينطلق قطار الحضارة الإسلامية فوق قضبان التاريخ، شريطة أن تكون الروح أولاً.

الهجرة... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة[٦١٧]

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريشًا ولا بني هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه -وهو الوفي- لم ينس لبني هاشم -مُسلمهم وكافرهم- مواقفهم معه عندما قادَتهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة، ولا يَمنّون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر ﷺ ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتّى قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت، فوالله لن أسلمك أبدًا"، مع أنه لم يكن على دينه.

---

[٦١٧] مجلة حراء، العدد: ٥ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٦).

obeikandl.com

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجرًا للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول ﷺ وهجر -إلى جانب الوثنية المسيطرة- تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها -بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها- أمرًا مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول ﷺ هي المرجعية لهذا الفهم.

فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربّى في بطاحها وتنسم عبيرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فجّ عميق؟!

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه ﷺ يرفض دائمًا أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول ﷺ الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أُحد الطاهر، فأصبحا حبيبَين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه التقيّ أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعًا: «اللهم

اهد قومي فإنهم لا يعلمون» (متفق عليه). وعندما كان يرى تمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: «يا وَيحَ قريشٍ لقد أكلَتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر الناس» (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وكم راودته الجبال الشم -بأمر من الله- أن تطبق عليهم، فكان يرفض ويقول: «أَرْجُو أَن يُخرج اللهُ مِن أَصلابهم مَن يَعبد اللهَ وحده لا يُشرك به شيئا» (متفق عليه). وعندما جاءته فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنّتهم في الشروط تعنّتًا أغضب أصحابه رضي الله عنهم، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا -وهم قومه وشركاؤه في الوطن- مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة، حبًّا لهم، وحفاظًا على بقائهم، وأيضًا لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل ﷺ مكة فاتحا فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عبادة ﷺ -أحد الصحابة والقادة الأجلاء- وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس وقال "لا، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزّ الله قريشًا"[٦١٨].

وعندما استسلمت مكة كلها تمامًا، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل.

---

[٦١٨] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

فلما سألهم: "ما تظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾(يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف عليه السلام التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعًا إخوته، كأنهم إخوة يوسف عليه السلام، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"[٦١٩]. فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة لمهاجري العصر الحاضر

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم -لأي سبب من الأسباب- لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التي تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران:١١٠) إنها ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد.

---

[٦١٩] سنن البيهقي الكبرى، الإمام البيهقي، ١١٨/٩.

obeikandl.com

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبوي، فليست الهجرة هجرًا للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعًا للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقًا من درس الهجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلّغها -إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ-... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حدائق للإيمان يفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الهجرة واضحًا في وَعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيّقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الهجرة

الإسلامية أبدًا من تلك الهجرات التي تعني زحفًا على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعاتِ وطموحاتِ المهاجرين إليهم.

فالهجرة الإسلامية اليوم -إلى أيّ بلد في العالم- يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحًا جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، و تقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم -من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدميّة، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله- شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائيًّا وعفويًّا، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضًا؟!. فسيصلون حتمًا إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيّه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركه روحًا جديدة، عبّر عنها من الصحابه الكرام

أنس بن مالك ﷺ في قولته المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنزوع إلى الحرب. فلما فتَحها الرسول ﷺ انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبيّ الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح -بالتالي- صالحًا لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة.

ولئن كنا نؤمن بأنه «لاَ هجرةَ بعد الفَتح»(متفق عليه) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: «ولكن جهاد ونية»، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعدًا اصطلاحيًّا جديدًا. ففي البُعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما -أي الجهاد والنية- قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقّر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون في كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخًا جديدًا يبدأ كأشعّة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة في الأرض.

وعلى المسلمين إذن -عندما يكونون في أرض المهجر- أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على "المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوّة، وهي مستوى خاص فوق أخوّة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً ماديًّا ومعنويًّا، تحقيقًا لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة: ٢) وقوله أيضًا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر: ٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعامًا أو شرابًا أو علاجًا أو تعليمًا أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضًا أن يبنوا "مسجدًا" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعًا. فقد حذّرنا الرسول من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعًا علميًّا ومؤسساتيًّا يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعًا في مهجرهم الجديد.

لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجدًا. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدية الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم.

فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبّدة وتعود مسجدًا طهورًا. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا نهرًا جديدًا للإيمان، وتاريخًا جديدًا تتعانق فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون...

وما ذلك على الله بعزيز!

obeikandl.com

حضارتنا الإسلامية...
من المرض إلى النهضة[٦٢٠]

في بعض ظروف الخلل لا نريد الذهاب إلى الطبيب المختص النطاسي، ونذهب إلى أطباء، نعرف بحواسنا ومشاعرنا أنهم يستوردون الأمراض التي ليست من أمراض بيئتنا، ويصفون أدْوِيَة لأمراض غير موجودة. إنهم يفرضون علينا المرض، ثم يصفون الدواء المستورد. أما أمراضنا الحقيقية فهم أبعد الناس عن التعرف عليها وعلاجها.

وإنما مرضنا في هذا الجانب هو "الفقر العام" الذي مبعثه "الفقر العقلي" والجمود الحضاري الذي يجعلنا نترك الملايين من الأفدنة الخصبة الصالحة للزارعة في بلادنا؛ بينما يُصلِح غيرنا الأرض الصحراوية. ثم نشكو قلة المحاصيل ونستوردها من بلاد أقل منا في الإمكانيات الزراعية بكثير، لكنهم أغنى منّا عقلا ووعيا وتخطيطا وإرادة.

وإنما أمراضنا في حقيقتها أمراض نبعت من انحرافات في فترة حضارتنا، وصلت بنا إلى انحطاط فكري، وتخلف، وخمول، ومضاعفات أخرى؛ تراكمت في ظل انفكاك ارتباطنا بديننا بشموله وانسجامه وصفائه وإيجابيته.

---

[٦٢٠] مجلة حراء، العدد:٩ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٧).

obeikandl.com

بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة

ونبدأ الآن في الإلماع إلى بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة بإذن الله.

فالخطوة الأولى في عملية العودة إلى قطار الحضارة الإسلامية تنحصر في شرطين متكاملين:

١-أن تتهيأ النفس المسلمة لتلقي الإسلام

٢-أن يعرض الإسلام كما هو من القرآن والسنة، لا من ضغوط الواقع المريض وبدون أن نلجأ إلى علم النفس الفردي، أو علم النفس الاجتماعي؛ فإننا نميل إلى أنه من الصعب التفرقة بين الإنسان كفرد والإنسان كعضو في المجتمع؛ وبالتالي فإن ما نريد تقديمه من علاج لا بد أن يلاحظ التيارات المزاحمة، أي إنه بينما يحاول تهيئة النفس لتلقي الإسلام الصحيح، فإن عليه أن يلاحظ أن عمله هذا يتعرض كل يوم لضغوط معاكسة، وما لم يعدّ لهذا التزاحم عناصر مقاومة فإنه لن يصل إلى تقدم في العلاج.

كما أن تفريغ النفس مما ورثته في حضارتها وطفولتها من مفاهيم، لن يتم إلا بوضع البديل الذي يطرد القديم. فالنفس لا تعرف "الخلاء المطلق"، وحبذا أن نركز على الجيل الجديد الذي قد يسهُل تقديم التصورات الصحيحة له عن طريق تقديم "ثقافة إسلامية" تنقل له الإسلام كما هو.

وإذا كان القرآن يقول لنا: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فمن الواضح أن تغيير ما بالنفس لن يتم إلا عن تغيير ما بالفكر، وبالتالي فالثقافة الإسلامية الصحيحة بمجالاتها في التوجيه،

والتربية، والأخلاق، وغرس النزعة الجمالية، والسلوك المنسق البناء... الخ. هي الخطوة الأولى لإيجاد "إنسان الحضارة الإسلامية" القادر على النهوض بها في دورة جديدة للتاريخ.

إن حضارتنا تقبل -بطبيعتها- أي انفتاح أو "عصرية" عقلانية في مجال الدراسات الطبيعية والكونية. وهي واثقة أن علماء الطبيعة وغيرهم لو التزموا المنهج الموضوعي، فلن يصلوا -ولم يصلوا حتى الآن مع أنهم في القمة- إلى شيء من معطيات هذه العلوم تستطيع أن تهز أسسها الفكرية.

وبالتالي، فهي ترى ضرورة الجمع بين "الثابت" (الأصالة)، و"المتغير" (نتاج الفكر). وترى أن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة هو هذا "الثابت" الذي تبنى فوقه الطوابق "المتغيرة".. ولا تعارض بين الثابت المتصل بالفطرة الممنوح ممن خلق الخلق، ويعلم جوهرهم، وبين المتغير المحض من اجتهاد العقل البشري الذي يتطور عاما بعد عام وقد يُرفض في جيل ما أثبتته أجيال كثيرة سابقة.

إن "الأصالة" شرط أساسي من شروط بقاء هويتنا وكياننا الداخلي في عالم يعج بألوان الصراع الحضاري. كما أننا في حاجة إلى "العصرية" لكي نستطيع الحياة مع أبناء هذا العصر، وبهما معا، وممتزجين، نستطيع أن نسير في موكب التاريخ.

إن الاعتماد على ما تقدمه الأصالة وحدها، إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الماضي، كما أن الاعتماد على التجارب المعاصرة إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الخارج. وكلا النوعين من الاستيراد لن يكون مطابقا لما تحتاجه ذاتنا وظروفنا بكل أبعادها وأجزائها وتحدياتها.

obeikandl.com

وبالتالي فإن استئناف حضارتنا الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (الخامس عشر للهجرة) يقتضي أن ننطلق من فكر إسلامي أصيل؛ يعي جذوره الحضارية، ويعي التحديات التي يواجهها، والواقع الذي يعيشه؛ ليعبر عن الشخصية المسلمة، وعن غاياتها وأهدافها في الحضارة والتاريخ بكافة أعماقها وشمولها.[٦٢١] وهو عمل لا يصنعه فرد واحد؛ لأنه لا بد أن يكون شاملا للجوانب الاجتماعية كلها سياسية واقتصادية وأخلاقية، بل هو مهمة المؤسسات العلمية والإعلامية والمفكرين الإسلاميين والحكام؛ بل وكل مهتم بقضية مستقبل هذه الأمة، ودورها الحضاري في التاريخ.

لقد واجه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ﷺ حضارتين انفتحتا على الدولة الإسلامية وقدّمتا من التصورات والمشكلات والأوضاع والضغوط، ما كان كافيًا لأن يهز قواعد الدولة الإسلامية الناشئة من أساسها. لكن عبقرية عمر ﷺ، وعبقرية الجيل الإسلامي الأول، وشعوره، وإيمانه بتفوق مبادئه، ووعيه بدور الأصالة في تكييف المعاصرة، وضمان السيطرة عليها لا الذوبان فيها..الخ. هذا كله كان له أكبر الفضل في أن يستطيع عمر بن الخطاب ﷺ وجيله الراشدي تحقيق الانتصار الحضاري أيضا -بعد العسكري- على الحضارات الجديدة، ونجح المجتمع المسلم في الإفادة من إيجابياتها، ونفي سلبياتها، وتم صهر هاتين الحضارتين في الوعاء الإسلامي، وأصبحتا جزءً من الحضارة الإسلامية.

وما فعلته الحضارة الإسلامية في موقفها من الرومان والفرس فعلته

---

[٦٢١] د. عبد الحميد أبو سليمان، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض ١٩٧٩م.

أوروبا في أخذها من الحضارة الإسلامية حين قطعت الجذور الإسلامية لما اقتبسته.

ولا يتردد مفكر كبير كـ"أرنولد توينبي" خلال أبحاثه الحضارية في الربط بين الحضارة الأوربية والكنسية الكاثوليكية. وفي رأيه أن الحضارة عموما تنشأ عن الأديان، أي من "الشرارة الإلهية الخلاّقة".

فلماذا لا ننطلق من ديننا وأصالتنا حاملين القرآن والعربية في يد، وكل ما نستطيع الوصول إليه من إبداع علمي وفني في اليد الأخرى؟!

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع -كقيادة حضارية- بكل الإمكانات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت "اليابان" -بعد أن دمرت في الحرب العالمية الثانية- إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وُكلاء الوِزارة وصلاحيات وُكلاء النيابة، ووفّرت لهم كل إمكانيات البناء. أما طبقة "العلماء" أو "التكنوقراطيّين" فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أيّ صفوة ممتازة في الحضارة السابقة. ولذا، فليس عجبًا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم، بعد أن كانت قد دمرت تدميرًا شبه كامل بأسلحة ذرّية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن "تستشار" على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة، على أن تكون هذه الطبقات موثوقا في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

ومن خلال الخطين المتكاملين -لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة، وخط الرعية المسؤولة أيضًا قَدْر حجمها «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (متفق عليه). من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلّم الحضارة بانسجام وتآزر.

"ولا ريب أن أعباء ومسؤولياتِ التوجيهِ والابتكارِ والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تُلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة. وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة.. بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد". "وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحةُ الأفق، مدركةٌ لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدّة. وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها؛ فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة"[٦٢٢].

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها. وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر، وتمضي سفينة الأمة متخطيةً العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام ووعيها الحضاري الكامل.

---

[٦٢٢] محمد على طنطاوي: (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض، سنة ١٣٩٩هـ.

الدور العالمي

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي، والانهيار النفسي الذي تُحدثه هذه المشكلات. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحسب؛ بل تجاه الإنسانية كلها. وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣). وكما يقول المفكر الهندي المسلم "وحيد الدين خان": "فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإسلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية".

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من حقائق الكون قد دحض بعض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، وأكّدت -في الوقت نفسه- أحقّيّة الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:[٦٢٣].

١-شيوع حرية الرأي والبحث.

٢-شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٣-شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي الذي قضى على الأسطورة

[٦٢٣] انظر بتصرف رسالة "إمكانات جديدة للدعوة" نشر القاهرة.

والفكر الخرافي.

٤-توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل. وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

الأفول الحضاري

في ظل هذه الحضارة "لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير" كما عبّر الشاعر الأمريكي "بينيه"... أما "رينيه دوبو" فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه "إنسانية الإنسان"، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة: "كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة عمّتْها أجهزةٌ منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمقٍ الآنَ بسبب الحياة العصرية التي نحياها. والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها".

وعن "دوبو" ننقل كلمة رئيس بلدية "كليفند" متهكما: "إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبته في الأوحال والقاذورات".

ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخّصين لحضارة أوربا من أبنائها، وذلك كـ "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أو "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ، أو "اشبنجلر" في كتابه "عن أقوال الغرب"، أو

روجيه جارودي في كتابه "حوار الحضارات"، أو "كونستاتنان جورجيو" في قصته "الساعة الخامسة والعشرون"، وهي الساعة التي يرمز بها "جورجيو" إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق: "حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت؛ لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يُرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور "النيون" خطوط القلب والفكر. إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيدًا للآلات والمجتمع الآلي".

إن الفكر الإنساني المتحرر المستوعب لأزمة الحضارة المادية التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري.. هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ؛ لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر. ويتقدموا بقلبٍ واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الروم:٤-٥).

أزمة الذات المسلمة وضياع الإحساس بالسنن الكونية[٦٢٤]

بعيدًا عن ذلك الجدل العقيم حول دور "الإنسان الفرد" و"الإنسان المجتمع" في العملية الحضارية، فإننا نؤمن إيمانًا لا يخالجه شك بأنَّ "الإنسان الفرد" هو الأصل الأصيل لكل عملية صناعةِ حضارة في التاريخ، ثم يأتي بعده "الإنسان المجتمع". وبالتالي فإن ما يصيب الإنسان المسلم من أمراض حضارية تؤثر بطريقة جوهرية على المستوى الذي تستطيع به هذه الحضارة أن تستجيب للتحدّيات البيئية أو البشرية.

إن الإنسان -بكل المقاييس- هو أساس العملية الحضارية، وإنّ حضارتنا الإسلامية ليست نشازًا في هذا المجال، بل لعلها من أكثر الحضارات اهتمامًا بدور الإنسان في التاريخ. ولهذا فهي -ابتداء- لا تعفيه من أي مسؤولية تحت أي شعار، كما أنها لا تجعل المسؤولية الجماعية بديلاً عن المسؤولية الفردية، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(المدثر:٣٨)، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(مريم:٩٣-٩٥).

وهذا الإنسان كما هو معروف كائن معقد، مزود من خلال تركيبه العضوي والنفسي والروحي المتكامل بكل الإمكانيات والطاقات التي

---

[٦٢٤] مجلة حراء، العدد:١٩ (أبريل-يونيو ٢٠١٠).

تؤهله للسير في طريق التاريخ الحضاري صعودًا وهبوطًا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(التين:٤-٥)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

الذات الإنسانية

ولأن هذا الإنسان في النظرة الإسلامية كائن متكامل في بنائه، وهو ذو طاقات متعددة لكنها متشابكة ومتكاملة، وهو كذلك لا يتحرك إلا بدوافع متعددة توازي طاقاته كلها... لأنه كذلك، فنحن نقترح بأن نطلق عليه اسم "الذات" أو "الذات الإنسانية". هذه "الذات" هي هذا المضمون الكلي أو الكائن المتشابك الذي يضم في أحشائه وبدون تشطير "النفس" و"الجسم" و"العقل" و"الروح".

إن هذه "الذات" هي التي أطلق سراحها في التاريخ بعد أن هبطت من الجنة، وهي بكيانها ذلك قد نيط بها أن تصنع "حضارة" متكاملة مثل تكاملها، متوازنة مثل توازنها، منسجمة مثل انسجامها. ذلك لأنها تصنع حضارة لذاتها.. حضارة إنسانية، وبالتالي فلا بد أن تُشبع عن طريق هذه الحضارة كلَّ طاقاتها.

وفي التاريخ تتابع الأنبياء وكلهم يقدم الحضارة الإنسانية الملائمة المنسجمة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، مركّزين على الجوانب التي اهتز رصيدها حتى يعود التوازن والانسجام بين كل الجوانب.

وعندما جاء الإسلام سار على الدرب، فكان هو أيضًا ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠).

ونجح هذا الدين العظيم في مناهجه التاريخية، فقدم إنسانًا متكاملاً، وقدّم من خلاله حضارة متكاملة أبدعت في شتى الجوانب، روحية أو عقلية أو مادية، والأهم أنه قدم هذه الحضارة المتعددة الجوانب على نسق "توحيدي" يفرض نزعته "التوحيدية" على كل صورة إبداعية من إبداعات هذه الحضارة؛ فنية أو علمية أو روحية.

إن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذا الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الإسلامي في إبان عصره الأول والوسيط، ولا تزال ماثلة في عصره الحديث بدرجة متفاوتة، لكنها موجودة وكاملة، على مستوى التنظير على الأقل. وأيضًا -وبنفس المستوى- ظل الإنسان المسلم هو المترجم الحقيقي -في مجال التنظير والتطبيق- لمنهج هذه الحضارة، وظل العمود الفقري الذي تعتمد عليه الحضارة الإسلامية وهي تقوم بدورها في التاريخ.

إن هذا الإنسان المسلم أو بالتعبير الذي أحسن استخدامَه الشاعر المفكر المسلم محمد إقبال: "الذات التي حملت أمانة تجسيد الحضارة الإسلامية في كل جزيئات فكره وسلوكه"، كان حقًّا خليفة الله في الأرض، يحمل إلى البشرية الأمانة التي حملها الإنسان. وكان هذا الإنسان النموذج الحضاري الذي تتحقق فيه الشروط الكاملة للقيام بالدور الحضاري، وهي في رأي محمد إقبال ثمانية شروط:

١- الإرشاد على خطى قيادة ملهَمة (النبوة).

٢- وعلى اعتبار روحي (التوحيد).

٣- وعلى دستور (القرآن).

٤- وعلى مركز محسوس (الحرم).

٥- وعلى هدف واضح تقرّه الجماعة.

٦- وتكون له السيادة على قوى الطبيعة.

٧- وأن تطور ذاته في اتجاه الذات الكلية الجامعة.

٨- وأن يحتفظ للأمومة بحقها (ولعله يقصد دور المرأة عمومًا وذكر الأمومة؛ لأنها أشرف أدوار المرأة).

ومن الضروري لهذه الذات أن تتصادم بالعوامل الخارجية (التحدي) حتى تظهر قوتها وحيويتها وعبقريتها وقدرتها على المقاومة والنمو. وفي قصيدته "دور الإنسان في التاريخ" يبرز "إقبال" هذا الدور الخطير عبر محاورته "الداخلية" التي يحاور فيها الإنسان خالقه وخالق الكون:

أنت خلقت الليل... وأنا صنعت المصباح،

أنت خلقت الصلصال... وأنا صنعت الكوب،

أنت خلقت الصحاري والجبال والغابات...

وأنا صنعت البساتين والحدائق والأرائك...

أنا الذي صنعت المرآة من الحجر...

وأنا الذي حولت السمّ إلى شراب نافع...

هذه هي "الذات المسلمة" التي صنعت الحضارة الإسلامية والتي أدت دور خليفة الله في الأرض.

الهبوط التاريخي

حين أصبح الإسلام "جباية" لا "هداية" سقطت إرادة المسلم الاجتماعية، وحين استأثر "بيت المال" أسرة أو جماعة، سقطت إرادة المسلم الاقتصادية؛ وتنازع المسلمون فيما بينهم، فسقطت عوامل كثيرة

من عوامل شعورهم الواحد... وقبل كل ذلك، كانت الذات المسلمة تفقد أجزاء من ذاتها، فتتفاعل مع عوامل الهدم الخارجية.. وكانت أزمتها الكبرى في داخلها فلم تستطع مقاومة "التحدّيات الجديدة".

وبين الحين والحين كانت تلك الذات المسلمة تثور على عوامل ضعفها، لتعود نقية فتية كما حدث أيام عمر بن عبد العزيز ﷺ، وأيام المرابطين والموحدين والسلاجقة، وفي بعض دول الهند الإسلامية، وأيام صلاح الدين، وفي أيام المماليك، ومع كثير من خلفاء آل عثمان، وفي العصر الحديث...

إغفال دور السنة

وكان من أخطر ما وقع من تشقيقٍ وتمزيقٍ في حضارتنا الإسلامية الحديثة، أن دور "السنة" -وهي النموذج الحي الذي قدمه الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريرًا- قد أغفل في العصر الحديث وفي كثير من عصور التدهور.

وبما أنَّ السنة مكمِّلة للقرآن وشارحة له، بل هي الدليل العملي على إمكانية تطبيق مبادئه، والعملُ بها هو عملٌ على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، كما أنّ هدمها هدم للهيكل الذي قام عليه صرح الإسلام.. وبالتالي فإن الذين يقولون بترك السنة يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصرًا، ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب.

بالإضافة إلى هذا، فإنه في هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية، فإن ترك نموذج الرسول ﷺ الذي هو "أسوة" حضارتنا وإمامها؛ إنما يعني التخلي عن حضارتنا الإسلامية، وقبولَ النماذج التي

تقدمها هذه الحضارة الغربية، ولعل هذا ما يسعى إليه المتجرئون على سنة الرسول ﷺ. ولكن إذا كنا نحن مسلمين حقًّا، نعتقد أن نبيّنا أحسن قائد عرفه البشر، وأنه -بطبيعة الحال- كان يعرف أمر الدين بناحيتيه الروحية والاجتماعية؛ فإن علينا أن نلتزم بهذه السنة، ولاسيما وأن مصادرها الصحيحة قد ثبتت بطريقة نقدية تاريخية علمية تفوق أيّ مصادر تاريخية في الأرض. والشك فيها يستوجب الشك في التاريخ البشري كله، بل إن ثبوتها يفوق -أمام مجيء المنهج التاريخي النقدي- ثبوت ما عداها من كتب الأديان الأخرى.

وبصفة عامة، فإن هناك عدة أسباب توجب إقامة السنة في حياتنا، وإحياءها في مجتمعاتنا باعتبارها أقصر طريق لإحياء حضارتنا الإسلامية. وأبرز هذه الأسباب:

• إن السنة تقوم بتمرين المسلم بطريق منظمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، لأن الأعمال والعادات التي تقع عفوًا لساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان، وكأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة.

• إن الرجل الذي جاء بالسنة ليس هاديًا من الهداة وإنما هو وحده "الهادي". فاتباعه اتباع للإسلام عينه، وإطراح سنته إطراح لحقيقة الإسلام.

• إن تطبيق السنة تنفض عنا روح الاستسلام والتبرير في قبول الصياغة الغربية للحياة. وبالتزامنا بها واتخاذنا إياها الكلمة الفصل، نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث والآفات التي ترد علينا من المدنية الغربية.

ثم إننا نكون -في ذات الوقت- قد طبقنا القرآن نفسه. ألم يكن خلُقه ﷺ القرآن كما ورد في الأثر، وألم يأمرنا القرآن نفسه بطاعته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(الحشر:٧). فهل لدينا الصلاحية لكي نقبل نصف الإسلام ونرفض نصفه الآخر، أو نؤمن ببعض آيات القرآن ونكفر ببعض؟!

المسلم يفقد دوره الكوني

عندما فقد المسلم صلته بروح الإسلام وبحياة الرسول ﷺ ذهب يهبط في سلّم الحضارة. فكان أن فقد قدرته على الالتزام والانضباط، وكانت هذه هي الفرصة السانحة لكي تنتشر بين أفراده ألوان من "التواكلية" و"السذاجة" و"القدرية" والبعد عن استيعاب سنن الله الكونية وسنن الله في الاجتماع البشري، وقوانينه في التقدم والتخلف.

إن المسلم الذي ارتبط في مرحلة نضجه الحضاري بالصلوات الخمس في مواقيتها المرتبطة بالحركة الكونية، وعَرف "مواقيت الصلاة" سلوكًا دينيًّا ونظامًا دنيويًّا، وتعبّد بقول القرآن ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، كما أدى الزكاة مع حلول "الحول"، وأيضا: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤١).. هذا المسلم الذي ارتبط بالكون والزمان هذا الارتباط الالتزامي الكريمَ، ونهاه دينه عن أن يسبّ الدهر، بل علّمه القرآن أن لهذا الكون "غائية" مرتبطة بـ"سببية" قوية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).. وعندما يخرج الإسلام بالعبادة عن إطار الشعائر المحددة ويوسع آفاقها، بحيث يجعلها سنة كونية عامة:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فإنه إنما يقصد ربط المسلم بالحركة الكونية العامة في كل حركاته وأنشطته، لكي يؤدي الأمانة التي حملها تجاه الكون كله.

ولعلنا الآن نستطيع أن ندرك معنى الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(الفرقان:٦٢).. فإن التفسير الدقيق لتعاقب الزمان -كما يتجلى في أنفسنا- يؤدي بنا إلى فكرة عن الحقيقة القصوى، هي أنها "ديمومة بحتة"؛ يتداخل فيها الفكر والوجود والغاية لتؤلف جميعًا وحدة متكاملة.

لكن المسلم في مراحل انزلاقه، قد انفك ارتباطه بالسنن الكونية والاجتماعية. وسرعان ما وجد أشباه فلاسفة، يقدمون له التبريرات المطلوبة لفك ارتباطه بالحركة الكونية وللسير اعتباطيًّا على أرض التاريخ. فهو يتحرك دون وعي مسبق، وهو يتحرك غريزيًّا، وهو لا يعرف لحياته أهدافًا، وهو مقطوع الصلة بالكون وما تستتبعه هذه الصلة من آفاق "معرفية" وآفاق "جمالية" وحركة "إيجابية" وسباق بنّاء مع تعاقب الليل والنهار ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾.

أجل، إن السببية روح التاريخ، وإلا فماذا وراء هذه الحركة المكرورة في الكون؛ شمس وقمر وليل ونهار... ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٤٠)، هل هي قصة عبثة؟!

وما في الكون، موجود -بنموذجه- في المجتمع البشري. فماذا يمكن أن يكون وراء آلاف المعارك البشرية وصور تدمير المدن وقيام أمم وسقوط أخرى؟!.

لا بد لهذه الأحداث المكرورة من أسباب وغايات. ولقد قدم القرآن

للإنسان المسلم أسبابًا هنا وغايات هناك، ارتبط بها المسلم يوم حدد لنفسه دورًا في هذه الحركة، يوم ساح المسلم في الأرض يحمل راية التغيير الإنسانية الشاملة: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده" كما قال ربعيّ بن عامر ﷺ أمام رستم، بينما كان رستم قائدًا للفرس، وكان ربعي ﷺ كأنه عاري الجسم حافي القدمين، لكنه كان "الإنسان الأعلى" الذي جاء لإحداث الانسجام بين الحركة الكونية والحركة البشرية.

وفي مراحل الانزلاق فقدَ المسلم هذا الدور الكوني، بل لقد فقدَ الإحساس بالسنن الكونية. وإن الزمان ليتحرك أمامه في تغييره ونظام انسجامه فيبدو له وكأنه يتحرك في "شاشة مرئية" أمامه، أو كأن الزمان مجرد "تمثيلية" مكتوبة بلغة أجنبية لا يعرفها المسلم الحديث، فلا يعنيه منها إلا الصور البلهاء التي تجعله يبتسم كالمبتسمين دون وعي، وقد يبكي أيضًا دون وعي بالأسباب التي تبكيه.

وضاعت روح المسلم

يقول أبو الحسن الندوي: "إنكم ترون في المتاحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة والعصافير.. ففيها الأسود والذئاب والأفيال، وفيها كل طائر جارح، وكل سبع مخيف؛ ولكنها جثة هامدة لا حراك فيها، وأجماد ميتة محشوة بالليف والقطن، ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول (...) إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها... فإذا وقع

صراع بينهما انهارت الصورة (...) والصورة -ولو كانت مهيبة هائلة- تتغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة، وإن الطفل يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة (...) ولذلك نرى بأعيننا أن "صورة الإسلام" أصبحت لا تغلب على "الحقائق" المادية الحقيرة، ونحن نحتاج اليوم إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم".

نعم، إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر وأعظم خدمة وأجلّها للأمة الإسلامية، هو دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام... لكننا نعتقد أن هذه الدعوة تحتاج إلى "برنامج" يسمح للمسلم بأن يتجاوز تلك العقبات التي تحجز بينه وبين أن يتمثل الحقيقة الإسلامية.

وهذا البرنامج لا بد له أن يتّكئ على دعامتين أساسيتين:

الأولى: دعامة تفريغ المسلم من الجاهليات التي اندمجت في لحمه ودمه واتجاهه في التفكير، بل في عواطفه ومشاعره، وأصبحت وكأنها بعضه الذي لا ينفصل عنه إلا بعملية تفريغ.

الثانية: ودعامة ملء هذا المسلم بالإسلام الصحيح الحي الذي يملأ عليه دنياه ويصوغ له حياته، ويغني كل طاقاته عن البدائل المطروحة في ساحة الأفكار والفنون والآداب والتصورات الأخلاقية والكونية والجمالية.

وليس من شك أن المسلم في العصر الحديث يقف على مفترق طرق، حيث تتخايل أمام عينه وقلبه آراء وتيارات ذات مضامين خلابة، وذات

بريق ساحر، وأنه لن يستطيع طويلاً أن يظل هكذا مائلاً هناك تارة، ومائلاً هنا تارة أخرى. كما أنه لا يستطيع أن يظل هكذا مسلمًا بلا إسلام أو شكلاً بلا مضمون... "لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً فيجب أن ينهض أو يموت"، "وإن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق... إنه يستطيع أن يظل واقفًا مكانه، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعًا، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان "نحو المدنية الغربية"، ولكنه حينئذ يجب أن يودّع ماضيه إلى الأبد، أو إنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها "إلى حقيقة الإسلام"، لكنه في هذه الحال لا بد أن يعود إلى روح الإسلام الحية الفاعلة الإيجابية، وأن يترك للإسلام فرصة الاستيلاء على كيانه كله، وإلا فإنه لا زال واقفًا في منتصف الطريق".

وإن نقطة الإعجاز في الحضارة الإسلامية أنها استطاعت -مع طبيعتها هذه- أن تمشي في التاريخ، وأن تقدم صورًا من الإبداع الحضاري المادي لا تقل عن أي حضارة أخرى سبقتها، أما عطاؤها في "الإنسانيات" فهو فريد في الحضارات كلها.

ولا تزال هذه الحضارة وستظل قادرة على أن تعطي. ولعل ما يجري على الساحة العالمية الآن من بوادر الانبعاث، أكبر دليل على القدرة الذاتية لهذه الحضارة الفريدة في التاريخ.

المصادر

(١) دارسات في الحضارة الإسلامية، للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، طبعة مصر.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد.

(٣) تجديد الفكر الديني، لمحمد إقبال.

Openkanal.com

الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ [٦٢٥]

كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشا لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق. وقد كانت مشاعر المسلمين لاسيما المهاجرين قد تأجّجت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام، وطنِ المهاجرين الذين طالت غربتُهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ستّ سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر... ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها وخابت كل جهودها وضاعت كل أحلامها وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة.[٦٢٦]

صلح الحديبية

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه بالعمرة. ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القِرَب. وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ أو ٦٠ كم تقريبًا. وقد عمد

---

[٦٢٥] مجلة حراء، العدد:٣ (أبريل-يونيو ٢٠٠٦).

[٦٢٦] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٧٧.

obeikandi.com

الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليُقنع أهل مكة بأنه جاء مُعتمرًا، ولم يأت محاربًا، ومع ذلك فقد رفَضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام، إلا أنّ الرسول ﷺ حافظ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن.[٦٢٧]

لقد "اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، أمر بذلك على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه. كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكّل عليه وقاتلهم فسيَغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضّل الانتظار. وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام، هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ١٨-١٩)."[٦٢٨]

"والحقيقة أن قرَيشًا التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة[٦٢٩] اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ، إذ قالت للرسول ﷺ: «وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب لا تدخلها

---

[٦٢٧] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٧٨.

[٦٢٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٧٩.

[٦٢٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨٥.

بغيرها»[٦٣٠]"[٦٣١]. ومعنى هذا "أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضًا، وأن لهم دينًا حنيفًا على ملّة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملْك للمشركين، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم"[٦٣٢].

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي ﷺ، وتغاضى عنها الرسول ﷺ إيثارًا للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين. وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول للسلام كان خيرًا وبركة وفتحًا مبينًا.[٦٣٣]

لقد كان المفاوض من قِبل قريش «سُهيل بن عمرو» يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصرًا كبيرًا له، لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل؛ فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ عليًّا ﷺ ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)» فقال سهيل: «اكتب: باسمك اللهم» فكتبها، ثم قال ﷺ اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعليٍّ ﷺ أن

---

[٦٣٠] البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٢/٤-١٩٣؛ كتاب المغازي للواقدي، ٥٧١/٢-٦٣٢؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢٠٠/٢-٢٠٦.

[٦٣١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٨٠.

[٦٣٢] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٨٠.

[٦٣٣] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨١.

يمحو كلمة «رسول الله» التي كان قد كتَبها، وتردّد عليّ ﷺ، إذ صعب عليه محو كلمة «رسول الله» فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكانها عليّ، وقال: «اكتب؛ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذنِ وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يرده عليه».[٦٣٤]

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة رآها على الرغم من تبرّم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ.

وهكذا يرينا صلح الحديبية بملابساته وشروطه المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول. ومن البديهي أن مناخ الحرب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق، ولا على الحوار الإيجابي. وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح على ما فيه من إجحاف فتحًا مبينًا، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

فتح مكة

أما فتح مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول ﷺ مقدمًا أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسموّ الذي عرفته

[٦٣٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨١.

البشرية عبر تاريخها.

إننا لا يَعنينا هنا رصد تطور الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرس التاريخي وكتب الحديث والسيرة، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند الخُلق الحربي الذي طبَّقه النبيّ الفاتحُ لبلده مكة، مع التذكير -في البداية- بكل ما عاناه الرسول من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عامًا، منها ثلاثة عشر أمضاها هو وصحابته تحت مِطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثًا عن ملجأ آمن. وعندما هاجر لُوحق ورُصدتْ الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة... ثم -أخيرًا- الأعوام الثمانية التي قضاها الرسول في مكة، وهم يلاحقونه ويتربصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو مُوعِزون لبعض القبائل بترويعه في المدينة والسطو على مسارح المسلمين التي تسرح فيها دوابهم، أو مقاتلون له مباشرة طورًا ثالثًا.

وها هي السنوات الطوال قد مضت، وها هو أنبل الناس وأزكى الناس، الذي حورب واضطهد يعود فاتحًا لبلده. أجل، بلده مكة التي أُخرج منها وهو يذرف الدمع ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ».

إنها ذكريات أليمة كل الألم، بشعة كل البشاعة. وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم "العدل" -على الأكثر- فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويستردّ ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة.

ولعلّ أقل ما يُقبل ويغتفر لهذا الفاضل أن يَدخل بلدَه شامخًا رافعًا

رأسه معتزًّا بمجده الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه. لكن الرسول الأخلاقي الذي وصفه ربُّه بالخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، لم يكن مثل أفضل الناس؛ بل إنه لولا بشريته التي نؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدّها وِسامه الأرفع، لولا البشرية والعبودية لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكة... لقد كان ملاكًا طاهرًا ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمح في الوصول إليه.

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه -وهو راكب- على دابته، تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تخشّعًا وخضوعًا لله، وإقرارًا بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاّء. ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرحل من شدّة الانحناء وهو -مع ذلك- مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول "المِلك" كما قال أبو سفيان للعباس ﷺ: "لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا.. فصحّح له العباس ﷺ، وقال له: إنها النبوّة"..

إنه ﷺ مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر؛ لأنه في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد، واستلم الحجر الأسود، طاف بالبيت، ولم يكن محرمًا ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(الإسراء:٨١)، ثم دخل إلى جوف الكعبة، فأزال آثار الوثنية في داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يُوحّد الله ويكبره. وكل ذلك، وهم ينظرون إليه، إنهم في وادٍ بعيد عنه، إنه في الآخرة، في الملأ الأعلى، أما هم فيفكرون هلِعين فيما ينتظرهم، متذكرين ماضيهم الأسود معه.

ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضاء العادل... لكنهم مع ذلك كانوا يعرفون أن محمدًا هو محمد رسول الرحمة. إنه لن يعاملهم بالعدل. فلو عاملهم بالعدل لانتهى كل شيء. ثم فاجأهم النبيّ الأعظم بالسؤال: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» وكأنما كان السؤال نفسه طوق نجاة لهم. فسرعان ما أجابوه قائلين: «خيرًا... أخ كريم، وابن أخ كريم.» قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾(يوسف: ٩٢)، اذهبوا فأنتم الطلقاء».[٦٣٥]

لقد وُلدوا من جديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كانوا يتخيلون أن يَنقَذوا -هكذا- في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، «اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء». لكنه سموّ محمد ﷺ في حربه.. سموه في عفوه.. سموه في إكرام من ظلموه.. وفي تأليف قلوبهم. فإن أكبر ما يهمه كنبي أعظم أن يدخل إلى قلوبهم، إنه لا يريد الطاعة كملِك، وإنما يريد الطاعة مع الحبّ كنبيّ بعثه الله رحمة للعالمين، وقد تحقق له ما أراد.

ثم تتوالى آيات عظمته، فيرفض أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ويعطيها للعباس ﷺ أو لعليّ ﷺ (بعض بني هاشم قومه)، وقال: «اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في الدفاع عن النفس أخطأ أحد القادة -وهو الرجل العظيم سعد بن عبادة ﷺ- فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم يذلّ الله قريشًا". فانتُزعت منه الراية بأمر الرسول ﷺ وأعطيت لابنه قيس وصَحح

---

[٦٣٥] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٥٠.

الرسول ﷺ العبارة حتى لا تذهب إلى الناس وتروّعهم قائلاً: «اليوم يوم المرحمة... اليوم يُعزّ الله قريشًا..». وقد صدق... فلولاه ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولَمَا كان لقريش قيمة أبدًا.

obeikandl.com

الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا[٦٣٦]

كان أبو حامد قادرًا على الانطلاق وعلى التحكم في الذات، وعلى أن يعيش في الدنيا وأن يعتزل ويعيش في السنوات الطوال بين الدنيا والآخرة. يا له من عظيم خدم الإسلام والمسلمين في منعطف من منعطفات الطريق.

في سنة ٥٠٥هـ ترك لنا العملاق الكبير أبو حامد الغزالي موسوعة ضخمة أطلق عليها اسم "إحياء علوم الدين"، ومات -رحمه الله- بعد أن عاش في دنيانا مدة قصيرة من الزمن إذا قيست بأعمار بعض الناس. فقد ولد سنة ٤٥٠هـ، أي إنه عاش خمسًا وخمسين سنة؛ اعتزل فيها الدنيا سنوات ليست بالقصيرة، متفرغًا للتفكير وللتدبر في الوحي والكون والعقل والنفس. وقد تألق في دحضه لحجج الفلاسفة، وأخرج للدنيا كتاب "تهافت الفلاسفة"، وأعطانا خلاصة تفكيره ونجاحه في الخروج من مستنقع الشك إلى أعلى درجات اليقين في كتابه "المنقذ من الضلال والهادي إلى ذي العرش والجلال".

إن القرن الذي عاش فيه الغزالي كان قرن صراعات كلامية قاتلة بين المتكلمين والمحدثين والفقهاء. وفي نفس الوقت ساد التصوف البدعي

---

[٦٣٦] مجلة حراء، العدد:٢٨ (يناير-فبراير ٢٠١٢).

obeikandl.com

الذي مثّل مرحلة تخدير للأمة نمت تحت ظلالها الحركات الباطنية والقرمطية، وتقدم الصليبيون يزحفون بجحافلهم من كل بلاد أوروبا؛ لأنهم أدركوا مستوى القاع الذي انحدر إليه المسلمون، وعرفوا أن قبلتهم لم تعد واحدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(الحشر:١٤). أما أصحاب الحركات الضالة الذين غلبتهم اللاعقلانية واللامنطقية، فأوّلوا الإسلام تأويلاً باطنيًّا غنوصيًّا، وشتتوا وجدان المسلم وعقله، فقد استحقوا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾(آل عمران:٧)، وقليل منهم هم الذين كانوا من الراسخين في العلم الذين يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(آل عمران:٧).

أبو حامد الغزالي وابن خلدون

وتلفت أبو حامد حوله فلم يجد معينًا له على الحق الذي يعرفه، ولا على الفقه الشمولي للإسلام الذي يريده. فقد رأى تآكل أهل الحق الداخلي، وشراسة أهل الباطل الخارجية، وامتداد الملحدين في فراغ المسلمين. وفي إطار الجمع بين الخلوة والتفاعل، والشريعة والحكمة، والحديث والفقه، كتب أبو حامد كتابه الذائع الصيت "إحياء علوم الدين". فكان شأنه في ذلك شأن عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ، الذي تشابه عصره بعصر أبي حامد الغزالي، فكتب كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". والجزء الأول من كتابه "العبر" هو ما يسمى باسم "مقدمة ابن خلدون"، الذي أصبح من أمهات الكتب وروائع الفكر

العالمي، إذ ارتفع بها صاحبها إلى درجة سقراط وأرسطو وأفلاطون كما يقول المؤرخ البريطاني المعروف "أرنولد توينبي" الذي كان من أكبر المدافعين عن قضايا العرب وحضارتهم.

الحاجة لعلوم الدين وعلوم الدنيا

إن العلوم المسماة "ظلمًا" بعلوم الدنيا قد تكون -إذا توافرت لها النيات الصالحة والأدوات الصحيحة والمقاصد النبيلة- من علوم الدين. فالطبيب الذي يعالج الأبدان لتكون قادرة على العمل والجهاد، أشرف وأزكى وأقرب إلى الله من الفقيه الذي يميت على الناس دينهم، ويمزق رؤيتهم، ويميل إلى التشدّد بدعوى الورع أو الأخذ بالأحوط حتى ولو تسبّب في تدمير العائلات وتفكيك المجتمعات، وقد يمتلئ قلبه بالتعصب المذهبي والبغض لإخوانه المتبعين للمذاهب الأخرى... وهكذا يمكن أن نقول في سائر علوم الدنيا.

ولئن ران على عقول المسلمين نوع من الفقه الكليل بالدين وعلومه، فقد ران على عقولهم نوع من الجهل الفاضح بعلوم الدنيا؛ فبينما أصروا على "فرض" حفظ القرآن على أبنائهم، أصرّوا في الوقت نفسه على "رفض" تدبّر القرآن واستكشاف الآفاق والسنن والكونية المحدّدة والمحققة لأسباب النهوض، ولعوامل التقوى ولعوامل الانهيار من جانب آخر، حتى يتأتى لنا أن نعرف الطريقين فنعمل بما يوصلنا "لامتلاك أسباب النهوض"، ونعمل في الوقت نفسه على "اجتناب أسباب السقوط". وظل القرآن يدرس في نطاق محدد، يدور بين إعجاز بياني وإعجاز فقهي (الأحكام) ولغوي وعقدي. لكن المسلمين الرافضين لعلوم الدنيا، عجزوا

عن اكتشاف إعجاز القرآن التربوي مع أنه معجزة تربوية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩) بالدرجة الأولى، ويسعى للتغيير الداخلي للنفس من أجل تغيير الواقع الخارجي، لأن تغيير ما بالخارج مشروط بتغيير ما بالداخل. وجدير بالذكر أن أول ما يجب معرفته عن شعب حديث اليقظة الذي لا تزال آثار النوم الطويل بادية عليه هو: هل بيده أسباب تقدمه الذاتي الداخلي؟ إننا نجد في القرآن الكريم النصّ المبدئي للتاريخ التكويني: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وينبغي أن لا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل يجب أن يكون تقريره في ضوء التاريخ كما يقول مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة". وعلينا -هنا- أن نتأكد من شرطين -بطريقة داخلية وإيمانية قوية-:

أولهما: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟

ثانيهما: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يؤكد لنا "مالك بن نبي" أن الحضارة بمعناها الصحيح الخالد، لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدّر الله على الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، هذا بالنسبة لصحة المبدأ القرآني.

وبالنسبة للنقطة الثانية نقول: إنه من المعلوم أن جزيرة العرب -مثلاً-

لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة؛ "الإنسان" و"التراب" و"الوقت" راكدة خاملة. حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء، نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة (لحظة ﴿اقْرَأْ﴾) وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونًا طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى المدنية والرقي. لقد عجز المسلمون عن أن يستنبطوا من القرآن نظرية اجتماعية أو حسب تعبير ابن خلدون "علم العمران"، وهو علم يضم علمي "الاجتماع" و"فلسفة التاريخ"، وحتى عندما جاء "ابن خلدون" وقدم تأصيلاً لعدد كبير من علوم الدنيا في مستوى الأنفس والآفاق، عجز المسلمون عن الاستفادة من "ابن خلدون" كما عجزوا في عصور التخلف عن الاستفادة المرجوة من الكتاب والسنة. مع أنهما يمثلان المرجعية الأساسية لنظرية المعرفة الإسلامية التي تمنحنا مفاتيح العلوم، وتمنحنا منهج البحث العلمي القائم على الوحي والنصوص الدينية والعقل والتجربة، أو بديهيات العقل السليم والحس السليم، فضلاً عن اللغة من حيث دلالتها الظاهرة المتعارف عليها، أي -بإيجاز- الاكتساب بالاختبار، والنقل بالتواتر.

ومشت عملية إحياء علوم الدين في تاريخنا عوراء أو عرجاء على هذا النحو... فلا هي اكتشفت في القرآن ما يتصل بعلوم الدنيا على النحو الذي يسمّونه الآن "الإعجاز العلمي في القرآن" وبالتالي انطلقت بالمفاتيح القرآنية تكتشف الكون وعلومه وقوانينه، ولا هي بذلت جهدًا محترمًا

في اكتشاف علوم الكون وقوانينه، ثم ذهبت بعد ذلك تتعامل مع القرآن ومفاتيحه من خلال علوم الكون التي اكتشفتها، بحيث تكتشف النسبة بين علوم الكون المنظور وعلوم القرآن المسطور. وقد تكتشف ما هو أهم وهو التطابق والتكامل بينهما، ومساعدة الوحي للعقل، وتفصيل العقل لمجمل الوحي وتطبيق دلالاته وتوجيهاته. كلا.. إن كل ذلك لم يقع إلا بنسبة ضئيلة تألّقت في عدد من الرموز الكبيرة في عصر تألُّقنا وازدهارنا الفكري، بينما بهتت واختفت في عصور ضعفنا العقلي والحضاري.

وانظر إلى حالنا في يوم الناس هذا... أين الفقيه والمفسر وعالم العقيدة الذي يلم بقدر مقبول من علوم الكون مثل الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها؟ إن هذا الفقيه الموسوعي الثقافة يكاد يكون نادرًا ندرة الكبريت الأحمر، وقد تجد بعض جوانبه موجودة بدرجة ما في عدد محدود، من أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ الشعراوي، وبديع الزمان سعيد النورسي، وفتح الله كولن، والطاهر بن عاشور "في التحرير والتنوير"، وسيد قطب في "الظلال".

ابن حزم الأندلسي، الملمّ بعلوم الدين والدنيا

تأمل معي في الموضوعات التي عالجها الفقيه الظاهري أبو محمد على بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) صاحب كتاب "المحلى" بأجزائه الكثيرة في الفقه المقارن، وكتاب "الإحكام في أصول الأحكام" في أصول الفقه بأجزائه الخمسة. هذا الفقيه الظاهري، عالج -مع ذلك- قضايا "مقارنة الأديان"، واعتُبر من مؤسسي هذا العلم من خلال كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وعالمًا في المنطق في كتابه "التقريب لحد المنطق"،

وعالمًا في التاريخ في كتبه "جوامع السيرة" و"حجة الوداع"، ورسالته في "أمهات الخلفاء" و"المفاضلة بين الصحابة"، وكتابه "فضائل الأندلس وأهلها" و"نقط العروس"، وعالمًا في علم الأنساب في كتابه "جمهرة أنساب العرب" وهو من أصعب العلوم. وقد قدم مع كل ذلك وغيره نظريات أثّرت في تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية، فقدم نظرية في الحب العذري الذي يسمّونه "الأفلاطوني" زورًا وبهتانًا، وذلك من خلال كتابه "طوق الحمامة" وهو الكتاب الذي يقول عنه المؤرخ في الأدب الأندلسي أستاذنا الكبير الطاهر مكي: "إنه أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي"، وقدم من خلال كتابيه "التقريب" و"الفصل" نظرية في المعرفة مازجًا فيها بين ما يعرفه الإنسان ببديهة الفطرة وأوليات العقل، وما يعرفه الإنسان بالحواس السليمة عن طريق الاكتساب.

وقدم ابن حزم أيضًا نظرية في كتابه "الفصل" تحت عنوان "مطلب بيان كروية الأرض" وفيه يقول: إن أحدًا من أئمة المسلمين لم ينكروا تكوير الأرض، وقد جاء القرآن بتكويرها في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(الزمر:٥)، وهذا إثبات لكروية الأرض بالدليل النقلي، أما بالدليل العقلي فيبني ابن حزم ذلك على ما أثر من ربط الصلاة بزوال الشمس، أي انتقالها من جهة إلى جهة. ومن ثم يبسط نظريته من خلال دراسة في أكثر من عشر صفحات. ومما يضاف إلى هذه المجالات الإبداعية التي قدمها ابن حزم للحضارة الإنسانية، رفضه النظرية التقليدية السائدة لدى المتكلمين والفلاسفة في العصور الوسطى، وهي نظرية "الجزء الذي لا يتجزأ". فإن ابن حزم قد جاهر بأنه: "ليس في

العالم جزء لا يتجزأ، وأن كل جزء انقسم الجزء إليه فهو جسم أيضًا وإن دقّ أبدًا". وهي النظرية النسبية التي أظهرها "ألبرت آينشتاين" مخترع الذرة في عصرنا الحديث.

ابن خلدون آثاره العلمية الشاملة

ونكتفي من هذا النموذج الذي قدمه فكر ابن حزم الظاهري بهذا القدر، ونقدم نموذجًا آخر يتمثل في الفقيه المالكي "عبد الرحمن بن خلدون" صاحب "المقدمة". لقد عالج هذا الفقيه من خلال المقدمة موضوعات مثل: فن التاريخ، علم العمران وما يعرض فيه، علم الجغرافيا وتفاصيل الأقاليم في أقاليمها، وأثر الهواء في أخلاق البشر، وطبيعة أهل البدو وأهل الحضر، ونظرية العصبيّة، وتأثّر المغلوب بالغالب، وطبيعة العرب وحاجتهم دائمًا للدعوة الدينية، وأحكام الخلافة والإمامة، والدواوين كديوان الرسائل والكتابة والشرطة، وغيرها... والسكة "العملة" والحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها، ومبادئ الخراب -أو الدمار- في الأمصار، والمعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وأمهات الصنائع مثل صناعة البناء والنجارة والحياكة والوراقة، وعلوم تعبير الرؤيا وعلم العدد والحساب والجبر والمقابلة والعلوم الهندسية، وعلم الطبيعيات والفلاحة والطلسمات وصناعة النجوم، وعلوم اللسان العربي، وغيرها.

وهكذا أحيا علماؤنا "وفقهاؤنا" علوم الدين والدنيا معًا، ومزجوا بينهما مزجًا كاملاً، ولم يروا أي تناقض، بل رأوا ضرورة إحياء الدنيا بعلوم الدين، وإحياء الدين وتفعيله من خلال علوم الدنيا. وما عرفوا أسلوب الكنيسة في إهمال علوم الدنيا ومحاربة أهلها بدعوى الاكتفاء

برؤية الكنيسة للحياة والعالم من خلال الكتاب المقدس. وفي مساجدنا كانت علوم الدين والدنيا تدّرس جنبًا إلى جنب، وينظر إليها على أنها متكاملة، وأنها كلها عبادة، بل كان الطالب ينتقل -في المسجد الواحد- من مجلس أو "عمود" أستاذ الفقه إلى أستاذ اللغة، وإلى أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية.

إن تكوين الفقيه والداعية من خلال "علوم الدين" بطريقة كمية انعزالية لم يعد كافيًا في عصر التحديات العلمية الهائلة، ولا طريق أمامنا إلا بناء داعية جديد يجمع بين فقه علوم الدين وفقه علوم الدنيا مع قدرته على قيادة الواقع بالوحي والفكر معًا. إننا لا نملك سلاحًا ولا قوة سياسية أو اقتصادية نواجه بها تحديات العولمة، وليس أمامنا إلا قوة الفكر والقيم حين نحسن فقه ديننا ونحسن عرضه، فهذه القوة هي التي نستطيع بها أن نقدم الإسلام وحضارته للعالم، لاسيما وهو في حالة ضعف مشين في مجال القوة العقدية والقيمية والفكرية والروحية. إنه وصل إلى القاع وهو يعيش عالم "الأشياء" -لا غير- أي المادة، أما نحن فلدينا -مع جهودنا في عالم الأشياء- منظومة فكرية وقيمية وروحية.

obeikandl.com

دع الغيب الذي فيك يتكلم[٦٣٧]

أيها الإنسان (الكون)!

ألستَ قسيم الكون؟ وهل يُعقل الكون إلا بك؟ وهل ينطق إلا بك؟ وهل يذلَّل الكون -بإذن مكون الأكوان- إلا لك؟!

إياك أن تزعم أنك جِرم صغير، ففيك انطوى العالم الأكبر. لقد صنعك الله بيده، ونفخ فيك من روحه. فأنت من الروح جئت، وبالروح تعيش، وبها تصنع كل أمجادك. فالروح قبل العقل وقبل الجسد، كما أن العقل قبل المادة. وعندما تذهب منك الروح صاعدة إلى بارئها ينتهي كل شيء فيك.

في البدء كانت الروح. ثم تمضي الحضارة إلى مرحلة العقل وتدخل عالم الأشياء. أما في مرحلة الروح فالغايات قبل الوسائل، والعام قبل الخاص، والمعاني فوق المباني، والأخلاق والمثل والأشواق العليا فوق القوانين، وفوق المعادلات الدنيوية الوضعية. حتى لو كانت هذه المعادلات في إطار العدل، فالحبّ والرحمة والإيثار فوق العدل، دون إلغاء العدل.

دع الروح تعمل فيك متعانقةً مع الوحي. لأنك -بهما- تصل إلى

---

[٦٣٧] مجلة حراء، العدد:١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

obeikandl.com

"إنسانيتك"، وبهما تنطلق إنسانيتك من إسارها فتتفجّر حكمة ونورا.

لسوف يضاء المصباح في داخلك، سيلتقي فيك الغيب والشهادة، ستنطلق حواسك إلى مناراتها لتضيء جوانب كونك الداخلي، وإشعاعاتك الخارجية. هنا قد تتحقق فيك بعض الومضات النورانية الربانية. وقد يلتقي فيك النوران: نور الغيب ونور الشهادة.

سوف يدخل المصباح إلى مشكاتك. فلا تستطيع الشهادة الواردة إليك أن تطفئ نور الغيب، ولا يستطيع الغيب الكامن فيك أن يشلّ فاعلية الشهادة، بل إنك سترى الأشياء على حقيقتها، لأنك سترى بنور البصر والبصيرة، وبالروح والعقل والمحسوس معًا. فكل الطاقات ستتفتح، كما تتفتح الزهور في الربيع. وسوف يفوح منك عطر الإنسانية الربانية.

سيفقه قلبك، ولسوف تعجب أن هناك ناسًا ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)، وستبصر عينك الأشياء وما وراء الأشياء، وسيذهلك أن هناك ناسًا ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). وستلتقط آذانك كل أنغام التوحيد المبثوثة في "سيمفونية الكون" فتعرف معنى حفيف الأشجار، وخرير الأنهار والبحار، وقطرات الأمطار، بل ربما تفهم منطق الطير، ليس بالشعور السليمانيّ الساطع، بل باللاشعور الوجداني الخافت. وسوف تدرك أن موسيقى الكون لا تتناشز، بل تتناغم، حتى مع العواصف والرياح. فلكلّ دورُه، ولكلّ إيقاعه ودلالته. وما يظنه بعضهم من تناقض ونشاز إنما يعود إلى أنهم لم يفقهوا جيدا أصول الإصغاء: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩).

عندما تترك الغيب الذي فيك يتكلم، سوف تتكشف لك ألغاز كثيرة.. سوف يدلك الغيب على حقيقة ما عجزت "الشهادة" عن تفسيره.. سوف

تزول عقبات الصعود.. وسوف يمضي الوعي فيك إلى غايته دون قيود. كيف رأى عُمير بن الحمام ﷺ أكل تمرات تساوي عمرا طويلا، فألقاها ليقطع العلاقة بالمحسوس في ساعة المفاصلة بين الشهادة والخلود. لقد أدرك الحقيقة وأراد سرعة العبور، لأن "الغيب" فيه هو الذي كان يتكلم ويعمل.

فدع الغيب الذي فيك يحمل فطرتك النقية ويتكلم ويعمل... دعه يمرّ، واترك موازينك المحسوسة رويدا، وتمهّل، وحاول أن تصعد وتحلّق. ترك أبو بكر ﷺ لأولاده الحصى، وهاجر مع النور إلى الأرض المنوّرة "ثاني اثنين" ليغنم، لأن الغيب فيه كان هو الذي يتكلم.

فاترك الغيب يحمل فطرتك ويعمل. قال حاتم الأصم: "لا تغترّ بموضع صالح، فلا مكان أعلى من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي.. ولا تغترّ بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبّده لقي ما لقي.. ولا تغترّ بكثرة العلم فإن بَلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي.. ولا تغترّ برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه".. لأن المهم -قبل كل ذلك- أن يتكلم الغيب الذي فيك، وأن تفقه وتعلم وتقصد أن تعمل.

روي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا آوى إلى فراشه يقول: "يا ليت أمي لم تلدني"، فقالت له أمه: يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال: "أجل، ولكن الله قد بيَّن لنا أنا واردو النار، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها". انظر كيف تكلم الغيب في أبي ميسرة فعرف الفروق بين الورود والصدور.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٤٣)، صاح سلمان الفارسي ﷺ ووضع يده على رأسه، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه". فأي غيب مكنون تحرك في سلمان فأبصر المستقبل من خلال ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾(مريم:٧١).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "ابْكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلمَ أحدُكم لصرخ حتى ينقطع صوتُه، وصلى حتى ينكسر صُلبه"، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».. ولكن لماذا لا نعلم العلم؟ لأن الشهادة الموجودة فينا وحدها هي التي تتكلم، أما "الغيب" الذي فينا فقد أخرسناه، حتى لا يتكلم.

عندما أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم أشهدهم على أنفسهم. لكن كيف شهد جميع بني آدم على أنفسهم؟ وأيّ بني آدم كانوا، أأبناء الحاضر المخاطب أو أبناء المستقبل؟ وأين كانوا عندما أدّوا هذه الشهادة الخالدة؟ وبأي لغة تكلموا؟ كان "الغيبُ الواعي" الذي فيهم هو الذي يشهد ويتكلّم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أجاب الغيب الجماعي الكامن فيهم: ﴿بَلَى﴾.

وهكذا شهدوا على أنفسهم بلغة الغيب الواحدة التي تتكلم دون إرادتهم.. لغة القوة التي لا تحبسها إرادة، ولا يحدها زمان، ولا يحكمها وعي.. لغة الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١). خلقكم أول مرة فاعترفتم بربوبيّته وقلتم: "بلى، شهدنا على أنفسنا". وخلقكم ثاني مرة، أعادكم بعد بعثكم الثاني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتكلمَت عنكم جلودكم، أنطقها الله الذي أنطقكم أول مرة.

في البداية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بالربوبية. وفي النهاية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بقدرة القادر، وإبداع الخالق. وبين البداية والنهاية تكلمت فينا قوى كثيرة، لكنها قوى الشهادة.

أما قوة الغيب الكامن فينا: قوة الفطرة والوعي والكهرباء المبثوثة في كياننا.. في قلوبنا وأرواحنا وأسماعنا وأبصارنا.. قوة النواة اللاشعورية والخليّة الحية الدائمة.. قوة المضغة التي لو صلحت صلح الجسد كله، والروح التي كانت في البدء، وتبقى معنا، تغدو وتروح حسب فاعليتنا وحضورنا، فإما غبنا فتوفاها الله حين غيابنا في نومنا أو موتنا؛ وإما حضرنا فأرسلها الله إلى أجَلنا المسمى.. أما قوة الغيب هذه فهي التي يجب أن نستثيرها لتتكلم فينا، بل لتعمل فينا، بل لتقودنا.

استفْتِ قلبك، إنه قوتك الحقيقة، وهو المصلح والقائد... استشره دائما، واخضع له ولا تخضع لقوى الشهود حين تختلّ في يدها الموازين.

أما موازين الداخل، موازين الغيب الكامن فيك، فهي لا تختل أبدا، شريطة أن تحفظها بسور البداية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)، وبسور النهاية: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١).

openkalem.com

رحلة الصعود الملائكية[٦٣٨]

ما أصعب أن تنخلع من ذاتك البشرية، وأن تتصل بإخوانك المؤمنين من الجن الذين قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢). وكذلك ما أصعب أن تتصل بإخوانك من الملائكة الذين ستلتقي بهم إن شاء الله في الجنة.

إنني -بعون الله- قد أستطيع تمثّل مشاعر إنسان مثلي، وقد أعيشها بكل قلبي فأنجح بنسبة كبيرة، أما أن أتمثّل مشاعر الملاك جبريل عليه السلام في هذا اللقاء الأخير، بعد رحلة دامت ثلاثة وعشرين عامًا، كان فيها دائم التواصل مع حبيبه وحبيب الكون كله، الرحمة العالمية للعالمين محمد بن عبد الله ﷺ، أما أن أصل إلى هذا المستوى فذلك صعبٌ جدًّا.

حقًّا، لقد كانت مشاعر الرسول محمد ﷺ توحي له بأن هذه اللقاءات هي آخر اللقاءات على الأرض مع جبريل عليه السلام ومع وحي الله ﷻ. ومع أن مشاعره لا يمكن أن تكذبه أبدًا، إلا أن ثمة نسبة بشرية بقيت فيه، تؤكد أن رسول الله محمدًا ﷺ لا يعلم الغيب حتى وإن أحسَّ به، وحتى لو اتجهت مشاعره في اتجاه هذه الوقائع المستقبلة.

أما حالة جبريل عليه السلام فتتمثل في أنه كان يعلم -بما علمه الله ﷻ- أن

---

[٦٣٨] مجلة حراء، العدد:٢٣ (مارس-أبريل ٢٠١١).

obeikandl.com

هذا هو اللقاء الأخير. ولو كان جبريل عليه السلام بشرًا مثلنا، لنزلت منه الدموع غزارًا، وعجز أن يكبت مشاعره أو يكبح جماحها من فراق الرسول ﷺ. يؤكد هذا ما ذكره أحد الصحابة رضي الله عنه أن المدينة (يثرب) عندما دخلها رسول الله ﷺ أضاء منها كل شيء، وعندما توفي أظلم فيها كل شيء.

لقد كانت الحياة سيعُمّها السواد أمام جبريل عليه السلام لو كان بشرًا، فالسواد من رؤيتنا ومن مشاعرنا وعواطفنا وليس من البيئة الخارجية المحيطة بنا.

لكن الحالة التي كان يعيشها جبريل عليه السلام هي أنه لا يستطيع أن يتمثل "بشرًا سويًّا" بالمشاعر الإنسانية الضعيفة والعاطفية. فلذلك بدا عليه السلام متماسكًا وكأنه لا يعيش اللقاء الأخير والأيام الأخيرة مع رسول الله ﷺ الذي كان يزوره في الليل والنهار، بعد أن يقطع ملايين الأميال ومئات السنوات الضوئية.

لكن هذا المظهر الوقور والثابت من جبريل عليه السلام، وعدم اطلاع الرسول ﷺ على علم الغيب، كلاهما لم يكونا كافيين لصرف مشاعر الرسول ﷺ عن إدراك أن الأمر ليس عاديًّا، وأن هذه اللحظات ربما تكون الأخيرة في لقاء السماء بالأرض، وجبريل بمحمد عليهما السلام. يؤكد هذا الإحساس لدى الرسول ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "وكان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسُول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة".

لكن هذه المدارسة التي كانت تتكرر مرة واحدة في كل عام في ليالي شهر رمضان المبارك، تكررت في رمضان من السنة الحادية عشرة من الهجرة مرتين. فقد جاء في صحيح البخاري عن فاطمة الزهراء رضي

الله عنها قالت: "أسرَّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي". فهكذا صرّح الرسول بشعوره باقتراب أجله.

ومعروف أن "المعارضة" تعني "المدارسة"، فأحدهما (جبريل عليه السلام أو الرسول ﷺ) يقرأ والآخر يستمع، وذلك تأكيدًا لحفظ القرآن وتنبيهًا على أن الرسالة آذنت بانتهاء، وتحقيقًا لوعود الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

فالقرآن الكريم كله -جملة واحدة- راجعه جبريل مع رسول الله عليهما السلام، ولعل آخر القرآن نزولا -عند بعض المفسرين- هي آيات الربا من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٨-٢٨١).

الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسانية

إنها بحق أعظم الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسانية. لقد دأب مؤرخو الإنسانية إلى تقسيم مراحل التاريخ إلى عصور، وربما إلى مواقع عسكرية أو أزمات إنسانية، وربما أعطى بعضهم للحروب العالمية وإلقاء أمريكا بقنبلتي "هيروشيما" و"نجزاكي" دورًا في هذا التقسيم. لكن هذه التقسيمات مرتبطة بظروف مادية، بعيدة كل البعد عن النظر إلى التطورات الروحية والعلمية والأخلاقية للإنسان، وهي تطورات حيوانية أكثر منها إنسانية.

أما ما وقع في هذه الأيام التي راجع فيها جبريل ورسول الله عليهما السلام القرآن الكريم مراجعة أخيرة، كي يكون بحق فوق أي تحريف أو تزوير، وبحيث ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤٢)، وما وقع في هذه الأيام، فهو منعطف حاسم لطريق جديد في تاريخ البشرية كله، وهو الدخول في عصر جديد، له خطورته الخاصة ومعالمه الأساسية بالنسبة لمستقبل الإنسانية. إنها المعالم التي تتجلى في الحقائق التالية التي فرضت نفسها على الإنسانية وهي:

أولًا: لقد انتهت آخر الكلامات الإلهية الموجهة إلى الأرض، فلا وحي بعد اليوم.

ثانيًا: لقد نزل إلى الأرض عبر التاريخ آلاف الأنبياء والرسل، ولا إرسال للأنبياء والرسل بعد اليوم، ومحمد ﷺ هو "خاتم الأنبياء". وعلى البشرية أن تقرر مستقبلها، وأن تقبل هذا "الوحي الخاتم" وهذا "النبي الخاتم" الذي قدم للناس -قولا وفعلا- قرآنًا يمشي على الأرض، وطلب منها أن تعتمده كآخر طبعة من الوحي، تهيمن على كل ما نزل قبل ذلك.

ثالثًا: لقد انقطع نزول الملائكة من ذوي الشأن وحملة الرسالات، فلا نزول لجبريل عليه السلام إلى الأرض بعد اليوم، ولن ينزل إلى الأرض إلا ملائكة مكلفون بوظائف محددة، لكنه ليس مأذونًا لهم بمخاطبة الناس. فقد انقطع الكلام بين الملائكة والإنسانية فلا كلام بعد اليوم. وحتى ملك الموت يؤدي مهمّته في إنهاء حياة الناس، بطريقة سرية لا يعلمها إلا الله ﷻ.

رابعًا: لقد وكّل الله ﷻ رسوله ﷺ أمر تبليغ الوحي إلى الناس العاديين الذين جعلهم الله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بعد الأنبياء، وجعلهم

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقال لهم رسول الله ﷺ وهو يودّعهم في حجة الوداع: «بلّغوا عني ولو آية»، وقال لهم أيضًا: «إنما بعثتم ميسرين»، فهم المبتعثون من قبله عليه الصلاة والسلام ليحملوا رايته إلى الإنسانية.

خامسًا: الويل لهؤلاء المبتعثين من رسول الله ﷺ إن خانوا الأمانة ولم يبلّغوا الرسالة، ولم يقدّموا طوق النجاة "القرآني" للبشرية بأحسن الطرق، وأعدل وسائل التقديم، أي بالحكمة والموعظة الحسنة، والثقافة الرفيعة التي تحترم -أيضًا- قيمة العقل الإنساني الذي سيتحمّل أعباء كثيرة في المرحلة التالية.

سادسًا: ويا ويل العقل إن عبد نفسه، وقرر أن يستغل الفرصة للمُضي مختالا مغرورًا، بعيدًا عن أوامر الوحي ونواهيه الفاصلة التي تحدد له شارات المرور الحمراء والخضراء. صحيح أن الإنسانية التي يقودها العقل، تتحمل كلها مسؤولية انفصال العقل عن الوحي، لاسيما الوحي الأخير الذي احترم العقل كل الاحترام، ووفر له أكبر شروط الفعالية والإيجابية والإبداع في إطار الثوابت الإلهية التي جاء بها القرآن الذي يهدي إلى التي هي أحسن.

سابعًا: لكن هذا لا يقلل من مسؤولية المسلمين الذين ينبغي عليهم أن يعرفوا دورهم، ويبلغوا الأمانة التي نيطت بهم إلى الناس باللغة العربية وبلغات الناس جميعًا، وبكل وسائل البلاغ، وسيكون حسابهم عسيرًا حكامًا ومحكومين، مثقفين وعلماء ودعاة وعامة من عامة الناس... فكلهم مسؤول عن أداء وظيفة "البلاغ" في حدود طاقتهم، تأسّيًا بخطوات نبيهم وإمامهم وقدوتهم خاتم النبيّين ﷺ الذي قال الله ﷻ له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾.

لقد كانت أيامًا صعبة هذه الأيام التسعة، التي عاشها الرسول ﷺ وهو ينتظر أن تصعد روحه إلى الرفيق الأعلى، وأن يعود مرة أخرى إلى "سدرة المنتهى"، يجلس إلى جوار أبيه إبراهيم عليه السلام.

لقد كان الرسول ﷺ ينظر في وجوه أصحابه رضي الله عنهم وتدور في فكره تساؤلات: "هل ستثبت هذه الأمة على ما مات عليه وما علّمها إياه؟ أم هل تخون الأمانة فتغير وتبدل وتتقاعس وتغلبها المطامع الدنيوية؟".

لقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف أنه بدأ ليله ونهاره، سواء في بطاح مكة وشعابها، أم في دار الأرقم بن الأرقم، أم في مسجده الكريم في المدينة، من أجل أن يبني الإنسان المسلم القادر على أداء الأمانة والزهد في الدنيا، ولقد أيده الله ﷻ ونصره وفتح له قلوبًا مغلقة وعقولًا جامحة، وكانت الآلاف المؤلفة من أصحابه أهلاً لحسن الظن بهم، لأن الله ﷻ مدحهم في القرآن الكريم وأثنى عليهم وقال عنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح:٢٩)، ومدحهم في بيعة الرضوان، وذكر أن أهل بدر جميعًا غفر لهم، وبالتالي وصفهم الرسول ﷺ بأحسن الصفات، وأفاض عليهم أطيب الألقاب؛ فهذا "صدّيق"، وهذا "فاروق"، وهذا "أمين الأمة"، وهذا "سيف الله" وهكذا... لكنه عليه الصلاة والسلام، كان يستشعر -كما أشار قبل ذلك في بعض المناسبات- أن هناك خوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأن هناك منافقين دخلوا الإسلام بعد انتصاره وتألّق دولته دون أن يفهموا حقيقة الإسلام، وأن هناك قوى ماكرة لن تترك نور الله يمضي دون أن تثير حوله الشبهات.

ومع ذلك فقد انتصر أصحابه الذين آمنوا به حق الإيمان، وكان لهم فضل القضاء على المرتدين والخونة. ولم يكتفوا بمحيط الجزيرة العربية،

بل ساحوا في الدنيا يرفعون راية "لا إله إلا الله" بالحكمة والموعظة الحسنة، لا يقاتلون إلا من قاتلهم. وإذا نصرهم الله على أعدائهم وملكوا الأمور، فرضوا العدل وفرضوا حقوق الإنسان، وفرضوا حقوق الله، على العكس مما تفعله القوى الغالبة اليوم حين تفرض الظلم، وتسحق حقوق الإنسان باسم المحافظة على حقوق الإنسان، وتقاتل من لم يقاتلها، وترتكب أعظم الجرائم في التاريخ، حين تزعم أن أفرادًا من شعب ما، هاجموها فتهاجم البلد بأكمله وتبيد أطفاله وشيوخه، زاعمة أنها تقوم -حين تقتل هؤلاء الأطفال والنساء والشيوخ- بمحاربة الإرهابيين المتطرفين.

ولمدة عشرة قرون، كانت يد الإسلام غالبة على العالم، وكانت حضارته هي الحضارة الرائدة، وكان -وهو يعلم البشرية- يتلقى الضربات والإبادات الجماعية من الصليبيّين، لكنه أبى أن يفعل كما فعلوا، لأن أصحابه -تلاميذ أصحاب رسول الله وتابعيهم- يحملون إلى الناس دينًا وحضارة وأخلاقًا، ولا يحملون إليهم دمارًا ولا إبادة ولا فسادًا ولا نفاقًا.

لقد كان دينهم يحكمهم قبل أن يحكموا به غيرهم، وكانت أفعالهم الواضحة الشريفة أقوى من أقوالهم، فدان الناس لهم وعرفوا قيمة دينهم وعظمة النبي القدوة الرائعة، الذي ينتمون إليه.

القراءة الخاتمة للقرآن

حين يعتكف الناس في العشر الأواخر من رمضان ويقرأون القرآن ويتدبرونه، عليهم أن يحاولوا استعادة هذه الأيام العشرة أو التسعة التي انقطع بعدها جبريل عليه السلام عن زيارة الأرض، وودّع صاحبه النبي العظيم ﷺ، وانتهت آخر كلمات السماء، وبقي وحده -خاتم النبيين- يجاهد بالقرآن جهادًا عظيمًا، وهو يسأل ربه ألا تفتن هذه الأمة من بعده عن دينها

تحت وطأة ما ستملكه من أرض الله بعد أن تفتح عليها الدنيا، وهو يسأل الله ﷻ ألا يكون بأسهم بينهم، وألا يعودوا إلى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض، وألا يعيدوا الظلم إلى الأرض، وهو ذلك الظلم الذي كان عليه الكسروية والقيصرية.

وهو ينادي الأمة مع كل ذلك قائلًا لهم: «لا تسبّوا أصحابي»، «اتقوا الله في أصحابي»، «لا تؤذوني في أصحابي»، «والصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».. كأنه يعلن حملة على استعباد السادة للعبيد. وهو يوصي أيضًا بالمرأة لأنه كان يعلم أن الرجال سيظلمونها، وسيبعدونها عن بيوت الله، وعن أخذ حقوقها والقيام بدورها.

هكذا كانت خواطره ﷺ كما تدلنا آثاره في أيامه الأخيرة. فهل نحيي في نفوسنا ذكريات هذه الأيام الأخيرة التي راجع فيها النبي محمد ﷺ وجبريل عليه السلام القرآن المراجعة الأخيرة الخاتمة، وهل نحيي في وعينا وأعمالنا ذكريات رمضان مرتبطة برحلة القرآن التي بدأت في رمضان في ليلة القدر، وانتهت في رمضان عندما اعتمد الأمين جبريل القراءة الخاتمة للقرآن التي أكمل بها الدين وتمت بها النعمة. وعسى أن نعيش هذه الرحلة القرآنية الرمضانية في واقعنا وفي حياتنا كما كان يعيشها الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم يومًا بيوم منذ رمضان الأول الذي نزل فيه القرآن، إلى رمضان الأخير الذي عاشه جبريل ومحمد عليهما السلام، وكأنهما يودّعان الأرض بقلوب خاشعة وأعين دامعة، لكنها دموع معنوية نفسية، وليست بدموع من نوع دموعنا.

فعليك السلام يا جبريل وأنت تودّع الأرض وتودع محمدا ﷺ..

وعليك السلام يا خاتم الأنبياء وأنت تؤثر الآخرة وتقول: «بل الرفيق الأعلى».

كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١. ونحن نقيم صرح الروح
٢. ونحن نبني حضارتنا
٣. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤. ترانيم روح وأشجان قلب
٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦. القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧. الموازين أو أضواء على الطريق
٨. حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩. أسئلة العصر المحيّرة
١٠. أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١. طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢. ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣. النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤. القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

obeikandl.com

كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري.
٢. البردايم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، د.محمد باباعمي.
٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي.
٥. الزمن والوقت.. النصوص والمفاهيم المؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنّا.
٩. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدبّاغ.
١٠. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت.
١١. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس.
١٢. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر.
١٣. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول.
١٤. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه.
١٥. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر / أرطغرول حِكمة.

openkanal.com